فلسطين والاندلس ، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي . ان فكرة الفردوس المفقود تغري الشعراء المفتقرين الى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة ، لانه يشبهها ولانه ممكن .

ـــ ألم تقف ، يوما ، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة ؟

● قبل هذا ، لا تملك الطفولة دعوى في المكان . ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائما وطنك ، الا اذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية . اذا كانت الولادة فردية واصطناعية فان المكان يكون صدفة . وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن . ان يتناسل غزاة في أرض الاخرين لا يؤلف حقا وطنيا لهم . ولكن ان يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها . والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع ، الآن ، بسبب النفي لا تغير شيئا حاسما في تركيب الاشياء . أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم الا اذا كان نتيجة زواج الشعب والارض والحق . الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة . ومن هنا ، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة .

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة . وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الاحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني ، لان رحيلي لم يكن اختياريا . لم يكن سفرا . كان نفيا وطردا . ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها وينضج في مقاومتها من داخلها بل في العودة الى جذوري .. التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني اليها . نحن الآن في سن أكبر ، وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني الى ظروف المنفى الداخلية وحدها ، فذلك يشكل انتصارا لاسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم ان يوقع بين الجرحى وادارة المستشفى . لا أقول هذا لأشيد بحسن الادارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة لا يجب أن يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا .

لم تكن قادرا على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك الى أنك فلسطيني وليس من حقك أن تتفوق في الدروس . كانت تلك الاهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات ، تفهم عندها ان قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة . ولكنك في السن المبكرة اياها تلمست،بشكل غريزي، أن خلاصك من الاهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الاهانة . وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري ـــ لا الصدفي ـــ بعالمك الاول . فتحولت قريتك الغامضة ذات الازقة الضيقة الواقعة على مرتفع صغير في سهل عكا الى حل لمشكلة لا تفهمها . ومن هنا ، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين ، وأدلة على امتلاكك لشروط انسانية لا تشكل سببا لتعرضك الى الاهانة . وكان احساسك بهذا البرهان يلتهب ، بشكل خاص ، في أيام الاعياد . كان الاطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد . وكنت تقف مع ابيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره .

ـــ متى حدث ذلك ؟

● في عام ١٩٤٩ . بعد عام على الرحيل .